

مجلة الهلال

يناير 2003

أوراق الرفيق مرسى والحركة الشيوعية المصرية

بقلم: د. رعوف عباس

منذ نشرت دراستنا عن "الحركة العمالية في مصر"، عام 1967، واهتمامنا منصرف إلى محاولة الوقوف على المصادر الأساسية للحركة العمالية في بعدها النضالي والسياسي، واستطعنا أن نجمع بعض الأوراق الهامة المتصلة بتاريخ الحركة حتى نستعين بها في إعداد دراسة شاملة لتاريخ الحركة على ضوء ما تكشف من أوراق، وما توفر من شهادات بفضل الجهود التي يبذلها مركز البحوث العربية فيما ينشره من شهادات الكوادر العمالية واليسارية.

ولكن عندما وقعت في أيدينا أوراق هنري كورييل الذي لعب دوراً بارزاً في الحركة الشيوعية المصرية منذ بداية الأربعينيات حتى بادرنا بنشرها، وقدمنا لها بدراسة منذ نحو خمسة عشر عاماً أثارت وقتها اهتمام "الهلال" فكتب محمد سيد احمد وسعد زهران مقالين مهمين حول تجربتهما الذاتية عن دور الأجنبي في الحركة الشيوعية المصرية، كما كتب طارق البشرى مقالاً حول دور اليهود في الحركة وما تحيط به من شبهات وجاء ذلك كله تعقيباً وتعليقاً على ما ذهبنا إليه في الدراسة التي قدمنا بها الأوراق من أن الحفاظ على إسرائيل كان يحتل بؤرة اهتمام هنري كورييل الذي كانت له مواقف محددة تشي بهذا الاتجاه.

سر كورييل

ولما كانت الكتابة عن هنري كورييل تثير حساسية فصيل معين من اليسار المصري لأسباب سياسية محضة لا تستطيع أن تتسامح مع حقائق التاريخ ووضوح الدليل، فقد هاجمنى بعض رموز هذا الفصيل على صفحات "الأهالي" بعبارات تنفق مع حجم الحساسية التي خلفها وصفى للاتجاهات الصهيونية عند هنري كورييل، وحاولت أن أتابع الحوار مع هؤلاء فأغلقوا الباب واتسع صدر "الهلال" فنشرت لى مقالة رداً على يوسف حزام الذي مول وأصدر طبعة مصرية من كتاب جيل بيرو عن هنري كورييل الذي نشر بعنوان "رجل من نسيج فريد" وأضاف إليه ملحقاً تضمن رسالة موجهة لى زعم انه أرسلها لى ولم أرد عليها دافع فيها عن موقف كورييل من الصهيونية وإسرائيل وقد قمت بتفنيده مزاعمه فى الرد الذى نشرته "الهلال".

لهذه المقدمة الطويلة نسبياً علاقة بموضوع هذا المقال وهو أوراق مارسيل شيريزى الذى نشر محمد يوسف الجندى معظمها فى كتاب صدر حديثاً عن دار العالم الثالث بعنوان "أوراق مناضل ايطالى فى مصر".

وكان مارسيل شيريزى يعرف فى مصر باسم مارسيل إسرائيل، ويعرف فى الحركة الشيوعية بالاسم الحركى "الرفيق مرسى". وقد التقيت به لأول مرة عام 1984 فى مكتب رواية عبد العظيم (دار سينا للنشر) بعد نشر كتاب "أوراق هنرى كوريبيل والحركة الشيوعية المصرية" بشهور قلائل. فقد جاء مارسيل إلى مصر، واتصل بالدار التى صدر عنها الكتاب وطلب مقابلتى، وعندما نقلت إلى الصديقة راوية عبد العظيم هذه الرغبة، رحبت باللقاء الذى كان مقوراً له ساعة واحدة، فامتد إلى سبع ساعات، فاض فيها مارسيل بطوفان من الذكريات، بدأها بإبداء تأييده لما ذهب إلى من اتجاهات صهيونية عند كوريبيل. ودلل على ذلك بقوله إن كوريبيل هو الذى كان وراء حل "الرابطة الإسرائيلية المناهضة للصهيونية" التى أسسها مارسيل وصاغ بيانها الذى طبع ووزعت منه 60 ألف نسخة (على حد قوله).

وعلى مر الساعات السبع قدم مارسيل إجابات مستفيضة حول تساؤلات طرحتها عليه، وللأسف لم يكون معى جهاز تسجيل يحفظ هذا الحديث، وإنما اكتفيت بتدوين بعض الملاحظات وانتهى اللقاء على وعد من مارسيل بإرسال ما لديه من أوراق إلى حتى أستعين بها فى إعداد دراسة لتاريخ الحركة الشيوعية المصرية. ولم يكن الوعد مشمولاً بتحديد زمن معين، بل شاء "الرفيق مرسى" أن يترك الموعد مفتوحاً حتى يتيسر له إعداد الأوراق.

وشغلتنى دوامة الحياة بالعديد من الأمور العلمية والثقافية الأخرى، ونحيت جانباً ما جمعته من أوراق عن الحركة الشيوعية المصرية مما تيسر العثور عليه فى مصر، ومما أمكن الإطلاع عليه بالأرشيفات البريطانية والأمريكية حتى كان مارس عام 2000 عندما وجدت على مكتبى بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة ظرفاً كبيراً أرسله مارسيل مع شخص ما، ومعه رسالة قصيرة جاء فيها:

(بعد مرور السنين من تاريخ طلبك أرسل إليك خظراً لشهرتك كمؤرخ موضوعى وكمساهمة تاريخية- بعض السندات والمكتوبات المتعلقة بكفاحى ضد الاستعمار والرجعية والصهيونية منذ سنة 1935 إلى اليوم. ولسوء الحظ جزء كبير من مكتوباتى ينام -إلا كان لا يزال حياً- فى أرشيف المحافظة، ولا سيما كورس لتدريس الماركسية مكون من حوالى 300 صفحة، وهو الدور الأساسى الذى قمت به أثناء حياتى المصرية - سلام وتحية، مارسيل شيريزى).

وتضمن المظروف الكبير الذى إشتمل على أوراق مارسيل شيريزى أو مارسيل إسرائيل (الرفيق مرسى) أوراقاً سبق أن أرسل أصولها إلى دكتور رفعت السعيد هى: شهادة قدم فيها ملخصاً لدوره فى الحركة

الشيوعية المصرية، ورسالة مطولة تضمنت تصويماً لبعض ما ذكره رفعت السعيد في كتابة عن " الصحافة اليسارية في مصر " ثم مذكرة مطولة لتصويب بعض ما جاء بكتاب "المنظمات اليسارية في مصر 1940 - 1950". وكذلك رسالة مطولة أرسلها إلى جيل بيرو مؤلف كتاب "رجل من نسيج خاص" عن سيرة هنرى كورييل حرص مارسيل أن يرسل لى نصاً عربياً لها بخط يده صحح فيها بعض ما قدمه بيرو من أفكار عن كورييل وقال رأيه فيه بصراحة، وحمله مسئولية ما تعرضت له الحركة الشيوعية من نكبات.

كذلك تضمنت الأوراق تقريراً كتبه مارسيل لرفعت السعيد عن حقيقة الانقسامات والتكتلات داخل "الحركة الديمقراطية لتحرير الوطنى" (حدثو) وهو تقرير - فى رأى- بالغ الأهمية.

وتضمنت الأوراق أيضاً مقالين بالإيطالية أحدهما بإحدى دوائر المعارف عن مارسيل ونضاله فى مصر وإيطاليا والآخر عن موقفه من العدوان الثلاثى على مصر ومساندته للموقف المصرى، ونص فرنسى يتضمن بيانات اللجنة المصرية للسلام عام 1938، وبعض المقالات التى أرسلها للنشر فى مجلة " اليسار " ومجلة " أدب ونقد" بما فى ذلك حوار أجراه احمد إسماعيل معه على صفحات المجلة الأخيرة.

ورغم أن الكثير من هذه الأوراق أرسل - أصلاً- إلى رفعت السعيد إلا أن المعلومات الواردة به بالغة الأهمية، ومجمل الأوراق يرسم صورة شبه كاملة لدور "الرفيق مرسى"، ويلقى أضواء على العمل السياسى الماركسى فى الأربعينيات. ولكنها ليست مذكرات، ولا تمثل كيانا واحداً. وبها تكرر للمعلومات هنا وهناك. لذلك فضلت الاحتفاظ بها لاستخدامها عند كتابتى لدراسة عن تاريخ الحركة.

أوراق الرفيق مرسى

ولكننى فوجئت الشهر الماضى بالكتاب الذى نشره محمد يوسف الجندى بدار العالم الثالث بعنوان "مارسيل شيريزى أوراق مناضل ايطالى فى مصر" الذى سبقت الإشارة إليه وبمراجعة الأوراق المنشورة على ما بين يدي من أوراق أرسلها إلى مارسيل تبين لى انه قد روعيت الدقة والأمانة فى نشر الأوراق ولكن استبعد منها رد مارسيل على جيل بيرو المتعلق بهنرى كورييل، وتقرير يقع فى سبع صفحات عن الانقسامات والتكتلات فى حدثو وعلى من تقع مسئوليتها، كان قد أرسله إلى رفعت السعيد والتقرير الخاص باللجنة المصرية للسلام (عام 1938) وكان نشر ترجمته أمراً بالغ الأهمية، كذلك تضمنت المجموعة التى بين يدي صور خطابات شخصية مرسله من العديد من الكوادر المصرية إلى مارسيل.

وقد حرص ناشر الكتاب أن يضمه نص أعمال ورشة العمل التى عقدت فى مارس 1999 بدعوة من لجنة توثيق الحركة الشيوعية بمركز البحوث العربية والإفريقية بالقاهرة، وهى الجلسة التى تراجع فيها مارسيل شيريزى عما جاء بشهادته السابقة أمام اللجنة ذاتها والتى نشرت فى كتاب شهادات الأجنب فى

الحركة الشيوعية المصرية، والتي قال فيها أن هنرى كوربييل كان نصف صهيونى، وهو تقييم يتسق تماماً مع ما سمعته منه بمكتب رواية عبد العظيم عام 1984، ولكن الرجل تعرض لضغوط من رفاقه ورفاق كوربييل القدامى فكان تراجعاً عن تلك المقولة التي حرص على أن يترك لى صورةً منه بالأوراق التي أرسلها لى وقراءة ما كتبه الرجل بخط يده توحى بأن هذا التراجع فيه قدر كبير من المجاملة للرفاق هذا إذا أمعن النظر فى الصياغة وعلامات التعجب التي حرص على أن يضعها فى موضع له دلالاته.

ومهما كان الأمر، فقد طالعتنا الصحف فى الأسبوع الأول من نوفمبر (2002) بنياً وفاة مارسيل شيريزى، قبل أن يتم عامه التسعين بشهور قليلة، ولم يعد أمامنا سوى ما تركه من أوراق، شاء أن يحملنى أمانتها، رغم أنها -كما اتضح من نشر الكتاب- بين يدى "الرفاق" القدامى وبعض تلاميذهم، وكأن "الرفيق مرسى" شعر بالحاجة إلى طرف محايد، لا يتعامل مع أوراق الرجل من منطلقات سياسيه، وإنما ضالته الحقيقة، والحقيقة وحدها، مهما بلغت درجة نسبتها.

سر الرفيق مرسى

ومارسيل إيطالى الأصل، كان جده حاخاما لليهود القرائيين بمصر، فى عهد محمد سعيد باشا، ومثل طائفته فى مجلس شورى النواب الذى أسسه الخديوى إسماعيل عام 1866، ولكن والده لم يسر على خطى الجد ففضل الانخراط فى مجال الأعمال، مالكا لأرض ورثها عن الجد فى ميت غمر، ومالكا أيضاً لمحلج للقطن. ولأمر ما فقد الأب ثروته، وأصبح فرازا للقطن بأحدى المحالج. كان الأب متمصراً، يتحدث العربية، ويصادق بعض أعيان المصريين مثل يوسف الجندى الذى لعب دورا بارزا فى ثورة 1919 بزفتى وكانت الأم يهودية -أيضا- من أصول إيرانية، متمصرة، تتحدث العربية.

من هذا الوسط جاء مارسيل، الذى ولد بحى الظاهر (1913) بالقاهرة، وتعلم بمدرسة الفرير ثم حصل من الليسيه الفرنسية على دبلوم فى التجارة وانتسب إلى مدرسة الحقوق الفرنسية ولكنه لم يكمل دراسته فيها، فقد تأثر بالماركسية واعتبر أن السعى للحصول على شهادة عالية من جامعه استعماريه انحراف برجوازي وبدأ عمله السياسى فى حركة السلام، وكانت اللجنة المصرية للحركة تكاد تكون أجنبية خالصة، ومنشوراتها تطبع بالفرنسية، فطالب مارسيل بتمصير اللجنة وجعل مطبوعاتها عربيه اللغة طالما كانت تعبر عن مصر، فادى ذلك إلى أبعاده من اللجنة (1937 / 1938) .

ولم يكن هذا هو الإقصاء الأخير من تنظيم يسارى بسبب التمسك بالتمصير، فقد كانت مسألة ترك قيادة الحركة الشيوعية فى مصر للكوادر المصرية موضع خلاف شديد بينه وبين هنرى كوربييل، وهو منظم شيوعى، ايطالى الأصل أيضاً، ظل متمسكاً بقيادة الحركة حتى بعد خروجه من مصر. فقد رأى مارسيل

إسرائيل -الذى اتخذ لنفسه اسما حركيا هو "الرفيق مرسى"- أن إصرار هنرى كوربييل على قيادة "الحركة المصرية للتححرر الوطنى"، والاحتفاظ بموقعه عندما اتحدت منظمته مع بعض المنظمات الأخرى، يضر بالحركة ، ويظهرها بأنها عمل أجنبى محض، غريب على الحركة السياسية فى مصر، بل رأى مارسيل بقاء الأجانب فى القيادة يخدم السياسة البريطانية فى مصر وينعكس سلبيا على الحركة الوطنية المصرية.

وإذا كان مارسيل أو(الرفيق مرسى) قد تعرف على الماركسية من خلال قراءاته بالمدرسة. وتأثرا باثنين من المدرسين الفرنسيين بالليسيه كانا ماركسيين، فان انخراطه العملى فى هذا التوجيه جاء من خلال معاشته للواقع المصرى، ومتابعته لأحوال العمال البائسة فى محالج القطن، وخاصة عمالة الأطفال، وما يتعرضون له من معاملة لا إنسانية إضافة إلى الإصابة بالسل دون أن تكون هناك مظلة قانونية تحميهم. كذلك جعلته الوظائف التى تقلب فيها -وكلها وظائف إدارية بسيطة- على صلة بالعمال المصريين، وعلى معرفه بواقعهم التعس، ومن بين أولئك العمال اختار "الرفيق مرسى" من لقنهم الماركسية، ومن اشترك معهم فى تأسيس منظمة شيوعية سرية حملت اسم "تحرير الشعب" عام 1940.

وعندما عمل "مرسى" على مساعدة زملائه المصريين لإقامة منظمه شيوعيه مصريه، كان ينفذ بذلك نصيحة تلقاها من قادة الحزب الشيوعى اللبنانى -الذى كان أول حزب خارج مصر- يتصل به، أما الحزب الثانى فكان الحزب الشيوعى الفلسطينى وقد تلقى مارسيل نصيحة بان يبذل جهده لتكوين تنظيم شيوعى مصرى من الحزبين الشيوعيين اللبنانى والفلسطينى، وكان قادتهما -فى آخر الثلاثينيات- من العرب.

وبالإضافة إلى العمال الذين جمعهم حوله فى حلقه لدراسة الماركسية، التقط -أيضا- بعض الشبان المصريين المتعلمين من "جماعة الفن والحرية" التى أسسها جورج حنين وضمت بعض المصريين ذوى الثقافة الغربية، وكذلك من جمعية الشبان المسيحيين من بين الملتفين حول سلامة موسى وتتضمن صور الخطابات التى تضمها أوراق مارسيل شيريزى خطابات من بعض المثقفين المصريين الماركسيين يصف بعضهم فيها مارسيل بأنه كان أستاذه فى الماركسية ويشيد البعض الآخر بما تعلمه على يديه من دروس فى الماركسية، وهى خطابات تلقاها مارسيل من مصر على مدى نصف القرن بعد ترحيله من البلاد إلى ايطاليا عام 1953.

ولعب مارسيل نفس الدور عندما ابعده عن مصر (1942 - 1943) وطرد إلى فلسطين، حيث أقام بمعسكر للاجئين المعادين للفاشية أقيم فى بيت لحم. وكلفه الحزب الشيوعى الفلسطينى بتدريس الماركسية للعمال العرب، وأكسبته تلك التجربة صلات وثيقة قامت بينه وبين الشيوعيين الفلسطينيين والأردنيين.

وفي منظمة " تحرير الشعب " التي كونها بمعاونة رفاقه المصريين تولى القيادة ثلاثة من المصريين، واقتصر دور الرفيق مرسى على التثقيف وأسست هذه المنظمة "جمعية الخبز والحرية" للنشاط العلني وسط العمال والمتقنين، و"جمعية الثقافة والفراغ" للنشاط العلني وسط الأجانب والطلاب المصريين. وقد توقف نشاط "تحرير الشعب" بعد الضربة التي وجهها إليها البوليس (في أكتوبر 1941) وسجن عشرة من قادتها المصريين، وأعيد تكوينها عام 1944 بعد خروج الكوادر المصرية من السجن وعودة مارسيل من فلسطين وظلت قيادة التنظيم مصرية، واقتصر دور الرفيق مرسى على التثقيف وإعداد الكوادر حتى عام 1947، عندما تم تكوين "الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني" (حدثو) .

وقد لعب مارسيل دوراً هاماً في الجهود التي بذلت لتوحيد المنظمات الشيوعية المصرية في إطار تنظيمي واحد، وكان من رأيه أن الظروف الموضوعية في مصر منذ بداية الحرب العالمية الثانية كانت أكثر نضجاً لإقامة " الحزب الشيوعي المصري" منها عام 1922 عندما قام أول حزب شيوعي علني في تاريخ مصر، ولذلك ظلت فكرة تفادي التكتل والتشردم، وتوحيد العمل الماركسي في تنظيم واحد شغله الشاغل، فقام بدور مهم بمعاونة من بعض "الرفاق" اللبنانيين والفلسطينيين في الجهود التي بذلت عام 1945 - 1946 لتوحيد الحركة، وهي الجهود التي أدت إلى الوحدة بين " تحرير الشعب" و " أسكرا" أولاً ليكونا "الطلائع المتحدة" ثم الوحدة مع "الحركة المصرية للتحرر الوطني" وتكوين اتحاد "الحركة الوطنية للتحرر الوطني" (حدثو) .

كما لعب مارسيل دوراً هاماً في تنظيم مؤتمر 1948 السري الذي كان يعد لمؤتمر تأسيس الحزب المزمع عقده عام 1949 وقدم لذلك المؤتمر (الذي عرف بمؤتمر الثلاثة والثلاثين) ورقة عن واقع الحركة الشيوعية المصرية والسبيل لتوحيد فصائلها واتخذ المؤتمر من تلك الورقة أساساً للتقرير الذي قام بإعداده لي طرح على المؤتمر التأسيسي للحزب والذي اخذ باقتراح مارسيل تكوين لجنة تحضيرية من كافة المنظمات تمهد للمؤتمر التأسيسي للحزب وتتولى مناقشة البرامج واللوائح والخط السياسي.

وكان مارسيل على رأس مؤسسي "الرابطة الإسرائيلية لمكافحة الصهيونية" في يونيو 1947، التي كان هنري كورييل وراء حلها. وكان منطلق الرابطة الشعور بخطر الصهيونية على حل القضية اليهودية وذهبت إلى أن الصهيونية "ليست إلا أداة بين أيدي القوى الاستعمارية العالمية التي تريد استخدام اليهود لتأكيد سيطرتها على الشرق الأوسط" وأعلنت أنها تتهم "الإرهاب اليهودي في فلسطين بأنه حركة فاشية موجّهة أساساً ضد الجماهير اليهودية ولا تخدم في الواقع سوى المستعمرين".

وظل موقف مارسيل من الصهيونية ثابتاً، ففي حديث أجرته معه مجله "أسرتي" الكويتية عام 1989، قال: " دولة إسرائيل لم تحل ولن تحل المشكلة اليهودية . . إسرائيل لعبت دوراً في تشويه الوعي اليهودي . . فانا أقول أن الصهيونية أكبر كارثة في تاريخ يهود العالم".

وبعد ما أبعد عن مصر عام 1953 وانضم للحزب الشيوعي الإيطالي لعب دوراً بارزاً في إدانة العدوان الثلاثي على مصر عام 1956، وظل يمد يد العون لكل من يلجأ إليه من "الرفاق" المصريين، حتى من ينتمون إلى أجيال رأت النور بعد رحيله من مصر.

ولاشك أن حرص مارسيل شيريزي على أن تجمع أوراقه وتنتشر، ولجوءه إلى أصدقائه، وإلى شخصي بحكم اهتمامي بتاريخ الحركة الشيوعية المصرية، دليل على اعتزازه بالمكون المصري في تاريخه النضالي وثقافته السياسية، وعلى حرصه أن تبدو صورته سوية غير مشوهة في ذلك التاريخ الذي يحتاج إلى التسجيل.